آشور القديمة والتجارة الدولية

الدكتور م.ت. لارسن

من اغرب الامور المتعلقة باقدم عن تاريخ اشور انه لم يصلنا سوى القليل من الادلة الاثارية والنصية الثابتة من المدنية نفسها . وتوجد بالطبع بعض المباني القديمة ولكن المعلومات التي تقدمها محدودة والنصوص من الفترات المبكرة لا تحتوي على معلومات كثيرة وهي تشير الى بناء معابد مكرسة لعدد قليل من الآلهة والى بناء التحصينات . وتتضمن قائمة الملوك الاشوريين سلسلة من الاسماء يجب طبعاً ان ينظر اليها بحذر . ان من الصعب جداً ربط سلسلة الملوك في هذه الوثيقة بتاريخ المدينة كما نعرفها من مصادر اخرى ومن اشور نفسها ومن اماكن اخرى . ويبدو من الواضح بشكل معقول ان المدينة التي تقع في اقصى النهاية الجنوبية من (المثلث الاشوري) كان اصلها سوقا او مركزا تجاريا وان موقعها جعل منها بمثابة محطة حدود بين جنوبي وشمالي بلاد ما بن النهرين ولذا لم يكن من المستغرب انها غالباً ما كانت خاضعة للسيطرة السياسية للملوك في الجنوب .

اقدم فترة من تاريخ المدينة وصلتنا وثائق وافرة عنها هي العصر الاشوري القديم ولكن لدينا مواد قليلة جدا من اشور نفسها وتلقي النصوص التي وجدت في كول ـ تبه في اسيا الصغرى الضوء على النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لاشور بحيث اصبح بوسعنا ان ندرك مدى الاهمية الفريدة لاشور . ومن الواضح ان ادلة مشابهة قد تكتشف اذا حالفنا الحظ في اشور نفسها وان تحليل النصوص التي وجدت في كول ـ تبه يسمح لنا بوضع الافتراضات حول ما يمكن العثور عليه في اشور وربما ما يمكن البحث عنه في الارض .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ان مجرد وجود نصوص كول ـ تبه يشير الى ان اشور كانت مدينة خاصة في العصر الاشوري القديم . وانني لأتساءل ما اذا كانت توجد حالة مشابهة لاية مدينة اخرى في الشرق الادنى القديم كأن تلقي النصوص التي يعثر عليها في مكان مثل هذا القدر من الضوء على الاحوال في مدينة اخرى

لقد كانت كول ـ تبه كما تعلمون عاصمة مملكة في الاناضول ونجد خارج اسوار هذه المدينة « المرفأ التجاري » والكاروم باللغة الاشورية اي المستوطنة التي كان يعيش فيها عدد كبير من التجار من اشور . لقد عثر في بيوتهم على عدد كبير من السجلات تتضمن رسائلا وعقوداً ونصوصا قانونية وحسابات وملاحظات الخ اي باختصار سجلات تجارية خاصة . وقد كتبت معظم الرسائل في اشور نفسها واكتشفت في بيوت كول ـ تبه التي تبعد الف ميل عن اشور ونقلت بقوافل الحمير مع البضائع التي كانت اشور تصدرها الى الاناضول

لذا فان هذه النصوص وخاصة الرسائل تعطينا صورة مقربة لبعض جوانب الحياة في اشور . ان ما ترويه لنا انعكاسات هذه الصورة هو ان اشور كانت في هذه الفترة من القرن التاسع عشر قبل الميلاد مركزاً تجارياً مهماً بشكل فريد وكان تجارها يسيطرون الى حد كبير على الحياة التجارية في شمالي سوريا وفي الاناضول حيث اقاموا سلسلة من المستوطنات والمراكز التجارية ان مركز اشور في تجارة تلك الحقبة كميناء تجاري بالمقارنة مع مجتمع سهل الدلتا الجنوبي يعني انها طورت نظاماً اقتصادياً واجتماعيا سياسياً خاصاً

كانت التجارة التي ترتكز الى اشور تقوم على نقل كميات ضخمة من القصدير والمنسوجات من اشور الى الاناضول . وكانت تلك البضائع تباع في منطقة الاناضول مقابل الفضة ـ واحياناً الذهب ـ الذي يعاد الى اشور ليستثمر في قوافل جديدة تحمل القصدير والمنسوجات . لقد تطور هذا النموذج البسيط اساسا الى نظام تجاري دقيق كان يشمل المستوطنات الدائمية في الخارج واجراءات معقدة ونظام حازم للسلوك في

المجالات الاجتماعية والسياسية والقانونية . ولن اتحدث هنا بالتفصيل عن المجتمع الاشوري في تلك المستوطنات او الاجراءات او النماذج المعقدة للوكالات والاستثمارات . كان الاشوريون في كول ـ تبه وفي المؤسسات الاخرى في سوريا والاناضول وفي كافة العصور على اوثق الصلات بالمدينة الام اشور ولا يمكن ان يوصفوا بالمستوطنين رغم ان الكثيرين منهم عاشوا في المرافىء التجارية الاشورية معظم حياتهم . كانوا دائماً يمثلون مصالح رؤسائهم في اشور . رغم ان بعض انجح الوكلاء في كول ـ تبه اصبحوا بالطبع اقل اعتمادا على الرؤساء في اشور .

كانت الشركة العائلية تمثل المؤسسة الرئيسية في هذا النظام الاقتصادي ونحن نعرف ان معظم وربما كافة ـ الاشوريين في الاناضول كانوا تحت السيطرة المباشرة لقادة تلك العوائل التجارية التي كانت تعيش في اشور نفسها وبنفس الطريقة فان المؤسسات الحكومية في مختلف « المرافىء التجارية » كانت تحت السيطرة المباشرة للهيئات الحكومية في اشور والملك وجمعية المدينة . ولا يمكن بالطبع فهم التجارة مع الاناضول ـ شحن المنسوجات والقصدير الى الاناضول واعادة الفضة الى اشور ـ اذا اعتبرنا ها نظاماً مغلقاً اننا نعلم ان القصدير الذي كان يرسل من اشور لا بد انه كان يرد اليها من مكان آخر ومن غير المتوقع ان يكون اكثر من مجرد كمية صغيرة من المنسوجات المصدرة مع القصدير قد انتج في اشور ولذا لا بد انها كانت من مكان آخر وبعبارة اخرى فان اشور كانت مركز انتقال ومدينة تتخصص في التجارة اكثر منها بالانتاج .

ان مشكلة مصدر الكميات الضخمة من القصدير المصدرة الى الاناضول لم تحل لحد الان ـ والحقيقة انها قد لا تحل . وكما تعلمون لا توجد مناجم كثيرة للقصدير في العالم ولا توجد اية مناجم تذكر في الشرق الادنى . ويبدو من المحتمل جداً ان القصدير نقل الى اشور من الشرق عن طريق القوافل عبر زاكروس في كردستان توجد مناجم كبيرة للقصدير في وادي فرغانة في تركمانستان السوفيتية ولكن هذا يعني مسافة بعيدة من اشور الاحتمال الآخر هو ان كان يوجد منجم اقرب بكثير الى اشور ربما استهلك الان .

ونظراً لعدم امكان الوصول الى الكثير من نصوص كول ـ تبه فمن الصعب جدا توفير تقديرات عن حجم التجارة مع الاناضول ولكن يمكن تقديم بعض الاحصائيات المتحفظة بالطبع . لقد اوصلني التحليل الى الاعتقاد بانه خلال فترة تزيد على خمسين عاماً بلغ حجم التصدير من اشور الى كول ـ تبه ٨٠ طناً على الاقل من القصدير و ١٠٠ الف قطعة من المسوجات . ان هذه تجارة واسعة ولا بد انها حققت ثروات كبيرة لاشور . والحقيقة ان بوسعنا ان نعرف بسهولة قيمة تلك الكميات من القصدير والمنسوجات . وباستعمال الاسعار الاعتيادية للتبادل في سوق كول ـ تبه نتوصل الى ان الايراد بلغ ١٠ اطنان من الفضة مقابل القصدير وحوالي ٨ اطنان من الفضة من المنسوجات ومن هذه الارقام نطرح كافة النفقات المختلفة والضرائب والتقدم الخ ، ومع ذلك تبقى لدينا ارقام تظهر بشكل لا يقبل الشك بأن اشور في العصر البابلي القديم كانت مدينة ثرية جداً حقا .

كان مصدر الكثير من المنسوجات في هذه التجارة وربما معظمها المدن في الجنوب . وبتلك الطريقة كانت اشور تعمل كميناء مهم جداً للتجارة للمدن الرئيسية في الدلتا وهو دور يبدو ان مدناً اخرى تقع على حافة منطقة الاستيطان الزراعي الرئيسية في الجنوب كانت تشارك فيه ولسوء الحظ ليست لدينا لحد الان ادلة من المدن البابلية معاصرة لنصوص كول ـ تبه قد تظهر لنا الجانب الاخر من هذا النظام التجاري ولكن لدينا ادلة من فترة تلت تلك الفترة بقليل قام ليانز بدراستها بصورة رئيسية تشير الى ان المدن البابلية كانت تستلم القصدير من الشمال والمعروف ان التجار البابليين كانوا يذهبون الى السوق في اشور ويبيعون منسوجاتهم . ومن المحتمل انهم كانوا يعودون بالقصدير . ولكن هذه احدى الثغرات في معرفتنا لا يمكن ملؤها الا بأدلة جديدة من اشور . وربما تظهر ادلة من اشور عن هذه الحقبة وتدلنا على احوال السوق في المدينة والى ما كان يستلمه البابليون ومن كان يأتي بالقصدير الى بابل .

اذا اخذنا النصوص الاشورية القديمة والنصوص من بلاد بابل فيبدو انها تظهر سوية ان النموذج التجاري الدولي كان عبارة عن سلسلة من الدوائر المتداخلة كل واحدة تشرف وسسيطر عليها مدينة او دولة . ومن الواضح ان الشركاء الرئيسيين في هذه التجارة كانوا من ميناء اور وتسيطر عليه لارسا ومملكة اشنونا على ديالى وسوسه في عيلام وسيار واشور بالطبع .

اننا في وضع غير مرضي لأن هذا النظام الدقيق كله تدل عليه مصادر غير كاملة من المدن البابلية ومن ادلة كثيرة من المرفأ التجاري في

كول ـ تبه في طرف من النظام بينما لم تقدم اشور المركز ذو الاهمية الحيوية اية ادلة تتعلق بهذه التجارة اطلاقاً

وكما اشرنا سابقا فان النظام الاجتماعي والسياسي في اشور يمكن ان يدرس من خلال نصوص كول ـ تبه ورغم بقاء عدد من النواحي مجهولة تماماً بسبب الطابع الخاص لادلتنا فيمكن اعادة تكوين صورة متماسكة بشكل معقول لاشور . وقد تكون لذلك بعض الاهمية بالنسبة للتنقيبات الجديدة في الموقع .

ان حقيقة كون الشركات العائلية كانت المؤسسات المهمة بشكل حيوي في القطاع الاقتصادي يوضح بأن من المهم جدا اكتشاف المدينة الاشورية القديمة واعني بذلك البيوت الخاصة . ان بالامكان ا ... ها سوف توفر لنا ادلة تخص التجارة كما كانت تدار من اشور نفسها . ونحن نعرف الكثير عن بيوت التجار الكبيرة في اشور ونتوقع ان تكون مباني كبيرة ذات منشآت للخزن ومشاغل تنتج فيها المنسوجات . ان المكاتب الفرعية في كولتبة كانت تضم مسجلات تتألف من مئات الالواح ولا يوجد سبب للاعتقاد بان سجلات اشور كانت اصغر بل على العكس فنحن نعلم ان سجلات كول ـ تبه حفظت كاملة في البيوت بسبب التدمير العنيف للمستوطنة وربما لم تقع مثل هذه الحالة في اشور ولكن حتى الادلة المحدودة من حقل تلك البيوت ستلقي الاضواء المثيرة على المواد التي لدينا الان . ان البيوت ذاتها ستكون ذات اهمية كبرى بالنسبة لفهمنا لعمل العوائل والشركات . والحقيقة بوسعنا ان نتوقع وبشكل معقول ان نجد ادلة على التجارة الدولية وبشكل اثار واختام ، الخ .

واستناداً الى نصوص كول ـ تبه فان المركز الاداري لاشور لم يكن القصر الملكي بل البيت المعروف بـ بيت اليم bit alim (قاعة المدينة) او بيت ليميم (دائرة المحافظ) والحقيقة هي انه لا توجد لدينا اية اشارات الى وجود قصر في اشور اطلاقا ويبدو من المؤكد انه لم يكن يستعمل كمركز اداري رئيس في الحقل التجاري . ولكن لما كانت النصوص من الاناضول لا تعلمنا بشيء عن نمط ملكية الأرض في اشور فيبقى ممكنا ان النصوص الادارية المتعلقة بمثل تلك المسائل ربما كانت في قصر ما . واذا كان مثل ذلك المبنى يقع بجوار المعابد الرئيسية والقصور التي انشأت في فترات لاحقة في المدينة فمن المحتمل انه اختفى . وينطبق نفس الشيء على المعابد بالطبع وهنا ايضا لا توجد سوى ادلة بسيطة تخص دور المعابد استنادا الى نصوص كول ـ تبه . ونحن نعلم ان معبد اشور كان يضم مخازن توضع فيها انواع معينة من الحاجيات وذات علاقة بالتجارة .

وفيما يتعلق بقاعة المدينة من الجهة الاخرى فنحن نعرف الكثير فقد كان فيها مقر المحافظ الذي يعين سنويا وهناك ايضا كان يجري توجيه القطاعات الحيوية لاقتصاد المدينة كما كانت الرسوم تدفع هناك وتنظم بعض المسائل القانونية المعينة كما كان المحافظ يؤدي القسم هناك وتجري ايضا السيطرة على التجارة في مواد كمالية معينة . كما اننا نعرف نوعاً معينا من البضائع يبدو انها كانت تصنع في تلك الدائرة التي لا بد وانها كانت تضم مخازن كبيرة . وباختصار فلا بد ان النصوص الادارية المتعلقة بتجارة اشور الخارجية المزدهرة كانت في ذلك البيت وسيكون اكتشافا رائعاً حقا ذا اهمية كبرى اذا امكن العثور على هذا البيت او حتى جزء صغير من سجلاته . ان ختم الاله اشور الذي تمت المحافظة عليه الى العصر الاشوري الحديث والذي كانت تختم به معاهدات اسرحدون يحمل النقش الكتابي التالي : (يعود الى اشور لقاعة المدينة) ان هذا هو الدليل المباشر الوحيد من هذه المؤسسة الذي وصلنا فلنأمل ان تقودنا التنقيبات الجديدة اليه .

يشار الى جمعية المدينة في عدد كبير من نصوص كول ـ تبه ولن اكرر هنا تفسيري لكل هذه الادلة ولكنني اشير فقط اى حقيقة ان هذه الهيئة التي كانت اهم مؤسسة سياسية في المدينة كان لها بلا ريب مكان تجتمع فيه ولا بد انه كان يوجد نوع من السجلات لاستعمال الجمعية . ويبدو ان الاجتماعات كانت تعقد في منطقة معبد اشور وبوابة مشلالو . ان بقايا ما يسمى بمجموعة نصوص القوانين من كولتبة تدلنا بوضوح انه كانت توجد قواعد محددة بشكل واضح لاجراءات الجمعية هناك كما تدلنا قليلا على ما نزال نفتقده في اشور . وقد لا نجد هذه الوثائق ولكن الامل قائم الان بعد استئناف التنقيبات ان الادلة الحالية من العصر البابلي القديم وافرة بحيث تشير الى ان اشور كانت ذات اهمية فريدة ولكن اشور نفسها لم تدلنا . سوى على القليل جدا . ومن الحقائق التي يجدر ذكرها اننا لولا النصوص من كول ـ تبه لما علمنا ان اشور كانت لها تجارة مزدهرة ولكننا نجهل تماما النظام الدقيق للمستوطنات الاقتصادية التي انتشرت في انحاء سوريا والاناضول . ان رأينا ذو جانب واحد وغير متوازن ولا يمكن بغير النصوص والاثار الاخرى من اشور ان تغير هذه الحالة المؤسفة .